بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

معذرةً إلى أمير المؤمنين . . من كاتب يُجاوز قدره بالحديث عنه ، والتأريخ له – كما جاوز قدره من قبل فى محاولات مُماثلة . .

ومعذرة إلى « أمير المؤمنين » . . من كاتب لم يستطع أن يكبح جماح رغبته هذه ، وهو يعلم علم اليقين قدْر مَقْتِ أمير المؤمنين للحديث عنه وإطراء شمائله ومزاياه . . !

وليكن شفيعى أن – أمير المؤمنين – لم يكن مِلك نفسه . . إنما هو ابن الإسلام البار ، ومِلكيته الثمينة . . ! ! !

ومن ثمَّ ، فالكتابة عنه ليست حقًّا له . بل هى حق للإسلام الذى كان – ابن عبدالعزيز – ثمرته ومعجزته . .

أفيأذن إذن أن أؤدى للإسلام حقًّا أطيقه ، وإن قصَّرتُ من قبل ، ومن بعد ، فى حُقوق كِثار . . ؟ !

* * *

ألا إن نبأه لعجيب . . وإن تصوره – مجرد تصوره – لأمر مُمعن فى الصعوبة يارجال . . ! !

ومع ذلك فحتم علينا ، لا أن نتصور فحسب ، بل نجاوز التصور إلى التصديق ، مادمنا نحترم التاريخ ونثق به . . .

فبأوثق أسباب النقل والرواية والتأريخ ، نُقلت إلينا هذه الآيات المعجزات التى سنراها ، والحقائق المتحرَّاة التى سنشهدها ونطالعها .

أجل – فى صدق تاريخى عظيم ، يرفض كل تساؤل وشك ، جاءتنا أنباء هذا الإنسان الباهر . . والحاكم القديس . . ! !

وإن الصعوبة التى تواجهنى الآن . لتتمثل فى : ماذا آخذ وماذا أدع من ذلك الحشد الهائل من الحقائق التى تحكى لنا جلال قَداسته . . وروعة بساطته . . وسمو عدله . . ونبل روحه . . وإعجاز مسلكه . . ! !

وإذا كانت الحكمة العربية تقول : من أخْصب تَخيَّر . . .

فإنى أجدها الآن : من أخصب تَحيَّر . . ! !

* * *

ولقد كنت أحسب أن كتاباتى فى « السِّير الإسلامية » . ستقف عندما أخرجت فيها من مؤلفات : عن خلفاء الرسول الأربعة . . ثم عن تلك الثُّلَّة المباركة من الرجال حول الرسول . . . ثم عن الإمام الشهيد « الحسين » وأبناء الرسول فى كربَلاء . .

كنت أحسب أننى سأقف عند هذه النماذج العالية لعصر الوحى الذى يبهرنى دائماً جمالة وجلاله . .

بَيْدَ أنى مالبثت ، حتى أبصرت هناك فى الذُّرَى الشاهقة مكاناً شاغراً لرجل ، هو وإن لم يَنْتَمِ لعصر الوحى تاريخيًّا – إذ تفصله عنه عشرات الأعوام – فإنه بقداسة روحه ، وجلال نُسُكه ، ينتمى إليه أروع ، وأجمع ، وأوثق مايكون الانتماء . .

ذلكم هو معجزة الإسلام – عمر بن عبد العزيز . . ! !

* * *

إنه لاينتمى لعصر الوحى فحسب . . بل إنه الرجل الذى حاول نقل عصر الوحى بمُثله وفضائله إلى دنيا مائجة هائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنة بالتحلل والترف . ثم نجح فى محاولته نجاحاً يبهر الألباب . . ! !

فهل نَدهش ونذهل ، لأنه بمفرده حاول تحقيق هذا المستحيل . . . ؟ ؟ ! !

أم ندهش ونذهل ، لأنه بمفرده قد حقق المستحيل فعلاً . . وجعل من الملك العضوض الذى شاده الأمويون عَبر ستين عاماً ، خِلافة أوّابة ، عادلة ، بارَّة ، تمثل كل فضائل وشمائل عصر النبوة والوحى . . ؟ !

ومتى . . ؟ !

ليس فى عشرين عاماً . . ولا فى عشرة أعوام . . بل فى عامين . وخمسة أشهر ، وبضعة أيام . . ! !

* * *

على أنه ليس فى هذا التوفيق العظيم ، والقدرة الخارقة ، ما يجذب وحده انبهارنا . . فهناك تلك الميزة الفريدة التى جعلت من « ابن

عبد العزيز» ومن سيرته أكثر الحقائق الإنسانية إثارة للعجب ، والبِرّ ، والإجلال ، والتى جعلت منه أسطورة ، أصدق من الحقيقة . . وحقيقة ، أعجب من الأساطير . . ! !

فهو لم يشغل الناس والتاريخ بكثرة عبادته ، ووفرة عدله ورحمته ، وسمو حكمه وخلافته ، فحسب . . ! !

بل إنه – قبل ذلك كله – شغل الناس والتاريخ وبهرهما بذلك الانقلاب الروحى المذهل وبالظروف التى أحدثته وواكبته . .

فقد يكشف منصب الحكم والخلافة فى شاغله عن عبقرية فى التنظيم . والإدارة . والسياسة . .

أما أن يكون هذا المنصب بكل إغرائه وفتونه وزهوه وسلطانه سبباً مباشراً لتفجير عبقرية الروح والقداسة ، فذلك مايصعب تصوره ، فضلاً عن تفسيره . . ! !

وهذا هو الذى حدث بالنسبة لـ« عمر بن عبدالعزيز» . .

فعلى الرغم من أنه كان قبل استخلافه ، وطوال سِنِى عمره طاهراً ، صالحاً ، فاضلاً . فإن ذلك كله لا يبدو شيئاً مذكوراً أمام حياته ومسلكه بعد القفزة المجيدة والمباغتة التى حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحى شهدناه فى كل بنى الإنسان . . ! !

ويزيد الأمر عجباً ، أن هذا الانقلاب الباهر ، تمَّ بتكامُله المطلق فى بضع دقائق من الزمان . . وأن هذا الانقلاب الروحى المعجز ، لم يجىء ثمرة طارئ يُغرى بالزهد ، ويدفع للعزلة والإخبات . . بل هو على النقيض من ذلك ، ثمرة مفاجأة تُفجِّر فى النفس مهما يكن ورعها وتقاها . كلَّ رغبات الحياة المتأنقة . . ومباهجها المتألقة . . ! !

أجل . . ففى الدقائق ، وإن شئتم ففى اللحظات التى هُتف فيها باسمه خليفة وحاكماً لأعظم امبراطوريات عصره وعالَمه . تمَّ هذا الانقلاب الذى يتحدَّى كل وصف وكل تصوير . . . ! !

والرجل الذى كان قبل دقائق استخلافه . يُضمِّخ ثيابه بأغلى العطور ، ويسكن أعلى القصور ، ويلبس أبهى الحلل ، ويأكل أطيب الطعام ، ويركب الصافناتِ الجِياد ، ويبلغ دخله السنوى أربعين ألف دينار . .

هذا الرجل ذاتُه ، يصير بعد دقائق . . لا أيام ولا ساعات ، إنساناً آخر ، عِطره ، عَرَقُه . . وجياده ، قدماه . . وملبسه من أخشن الثياب . . ومطعمه من أجشب الطعام . . ودخله لاشىء . . ؛

فقد حمل كل ثروته إلى بيت المال . . وقصوره الفارهة لا قصور . . ؛ فقد تحول عنها إلى دار متواضعة من الطين . .

وعرشُه – يالَجلال عرشه – حصير قديم يجلس عليه فوق التراب . . . ! ! !

ويزيد الأمر تعقيداً ، كما يزيده روعة وجلالاً أن بطل هذا الانقلاب الروحى المثير ، لم يكن من أوساط الناس . . بل هو ربيب الملك ، والقصور ، والأمجاد ، والنعيم . .

كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخاً هرماً ، فى سن الستين أو السبعين . بل كان فى رائعة شبابه ورجولته . فى سن الخامسة والثلاثين . . . ! ! !

* * *

تحت أى تأثير لا يُقاوَم سحره ، ولا يُردّ قدره ، وقع هذا الانقلاب داخل هذه الظروف . . ؟ ؟

لاشيء أمامنا سوى « مسئولية الحكم » نقلته فى لحظات إلى قديس لانظير له بين جميع القديسين . . ! !

ذلك أنه لم يَصِر « قديس صومعـة » بل قديس صولجان وسلطان . . ودولة من أعظم دول الأرض والزمان . .

وذلك – لَعمرُ الحق – مايكاد يذهب بالألباب . . ! !

لقد صار منذ استُخلِف يَتلَوَى تحت وقع مسئولياته ، ويصرخ من أعماقه : [من ينقذنى يوم القيامة من حق الفقير الجائع . . والمريض الضائع . . والمظلوم المقهور . . واليتيم . . والأرملة . . والأسير ..]..؟؟! !

* * *

إيه ، يابن عبد العزيز ! ! تقدَّم ، ولا تَخف . . . .

تقدم . . لترى الدنيا كيف أنجب الإسلام . . وكيف ربَّى « محمد » وعلَّم . . ! !

تقدم ياحفيد الخلافة والملك ، ورضيع المباهج والنعيم . . ! !

تقدم . . ياريَّان الشباب ، ويانَاعم الإهاب ، ويافوَّاح العطور والعبير . . ! !

تقدم « يا أمير المؤمنين » وأرِنا اليوم مُرَقَّعَاتِك ، وأسمالَك . . ! !

أرِنا القميص الذى كنت تغسله ، ثم تنتظره فى ركن دارك حتى يجفّ ؛ لأنك لا تملك سواه . . ! !

أرِنا وجهك الشاحب ، وجسدك الناحل من فرط مابذل من جهد ، ومن أثر الخبز المتبَّل بالملح ، والمبلَّل بالزيت . . ! !

أرنا « الحصـير » الذى اتخذت منه عرشاً يا خليفـة المسلمين ، ويا أمير المؤمنين . . ! !

أرنا دارك التى شدَّت إليها الرحالَ من بلاد بعيدة ، سيدةٌ جاءت تطلب المزيد من عطائها فلم تلبث حين رأتها أن قالت فى مرارة :

« أتُراني جئت أعمر بيتى ، من هذا البيت الخرِب . . ؟ !

ألا حيَّا الله « فاطمة » زوجتك ، فكم كانت صادقة حين أجابتها :

[إنما خرب هذا البيت ، عمارةُ بيوت أمثالك] . . ! !

تقدم . . يا أمير المؤمنين ! !

فما نعرف يقيناً أشبه بالأسطورة . . ولا أسطورة أصدق من اليقين ، منك أنت ، ومن نبتك العظيم . . ! !

* * *

ومعذرة – مرة أخرى – فقد نسيتُ أنك تكره الإطراء والثناء ولكَم كنت أود أن أعِدَك ألا أعود . .

ولكنى غير قادر . . والدنيا المبهورة بعظمتك تقف هى الأخرى ، عاجزة وغير قادرة . .

فمن ذا الذى يستطيع الصمت أمام الذى أتيته من مُعجزات . . مَن . . . ؟ ؟

. . ياأمير المؤمنين ؟ ؟ ! !

« خالد »